

بسم الله الرحمن الرحيم

رياض الصالحين

تتمة قصة كعب "ونهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن كلامنا أيها الثلاثة..."

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلا زلنا نتحدث عن خبر كعب بن مالك - رضي الله تعالى عنه - حينما تخلف عن غزوة تبوك، وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - حينما أقر هؤلاء الثلاثة وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية أن تخلفهم لم يكن بناء على عذر صحيح أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بهجرهم يقول: "ونهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتبنا الناس، أو قال: تغيرةوا لنا، حتى تذكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف، فلبتنا على ذلك خمسين ليلة".

لبثوا على ذلك خمسين ليلة، والمقصود أن هذا الهجر هو الهجر الشرعي، وهو الذي لا يُحد بأمد، إذ أن الهجر إما أن يكون لحظ النفس، لما يقع بين الناس من الشحنة والخصومة، فمثل هذا يحد بثلاثة أيام، وذلك من لطف الله - عز وجل - ورحمته بالمكالفين؛ إذ أن الإنسان قد لا يستطيع أن يغالب نفسه في حال الحنق والمغاضبة، فيقع في نفسه شيء من الوحشة على أخيه، فرخص له الشارع أن يهجر ثلاثة أيام، فما زاد على ذلك فإنه لا يجوز أن يلقى صاحبه ثم يعرض بوجهه ولا يسلم عليه، وقد صح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ((تفتح أبواب الجنة يوم الإثنين، ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً، إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناً، فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا))⁽¹⁾، فأما إذا كان ذلك لمعنى شرعي فإن الهجر عندئذ لا يُحد بأمد، لا يحد بثلاث، وإنما يكون ذلك بحسب الحاجة، وذلك إما أن يكون لمصلحة الهاجر، أو لمصلحة المهجور أو للأمررين معاً. مثل أن يكون هذا الإنسان وقع في بدعة، أو معصية، فإذا هجره هذا الإنسان ارتدع وترك ما هو فيه من الخطأ والانحراف، فمثل هذا يهجر، وأما إذا كان لا يرعوي ولا يتأثر ولا يكرث بهذا الهجر بل قد يزداد عتواً ونفوراً، فالهجر هنا لا محل له.

وكذلك إذا كان الذين يفعلون المنكر كثراً، بحيث إن الإنسان لو أراد أن يهجرهم لصار هو المهجور، فإن هذا لا هجر فيه، فلو أراد الإنسان الآن أن يهجر كل من يقع في معصية ظاهرة، كأن يقول: أهجر كل من يسلب ثوبه، أو يحلق لحيته مثلاً لصار هو المهجور، فهذا لا معنى له، ولا يصح هذا الهجر بهذا الاعتبار، إلا أن يقع في حق شخص معين يعلم أنه سيتأثر، ويترك ما هو فيه، أو يكون ذلك لمصلحة الهاجر، كأن يكون لا يسلم من شر ذي الشر إلا بهجره، كأن يكون إنسان عنده بدعة، وعنه ضلالات، وعنده أذية للناس، فلا يسلمون من أذاه، فعندئذ يهجرونه، ولذا جاءت النصوص الكثيرة عن السلف في هجر أهل الأهواء والبدع،

¹ - أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن الشحنة والتهاجر (4/1987)، رقم: (2565).

تارة لمصلحة الهاجر، وتارة لمصلحة المهجور، فهذا لا حد له، وهذا الهجر شرعي، وهو من أجل مصلحة المهجور ليرتدع.

فهؤلاء الصحابة شاركوا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- فيسائر الغزوات، وقد تخلفو عن غزوة واحدة فهُجروا خمسين ليلة، ودل ما ذكره كعب -رضي الله تعالى عنه- على أن هذا الهجر في محله.

قال: "تذكرتْ لي الأرض، فما هي الأرض التي أعرف، وتذكر لي الناس، وتذكرتْ لي نفسي"، فمثُل هذا لا شك أنه يدل على عظم تأثر هذا الإنسان؛ حيث إن كل شيء تغير حوله، وتغيرت عليه نفسه، فهذا هو الهجر الذي يؤدب وينفع ويزجر صاحبه.

يقول: "فَإِنَّمَا صَاحِبَ الْجَنَاحَيْنِ فَاسْتَكَانَا" ، أي: خضعا، غلب عليهما الحزن، والاكتئاب، وقعدا في بيتهما يبكيان، "وَأَمَّا إِنْ كُنْتَ أَشَبَّ الْقَوْمَ، وَأَجْلَهُمْ، فَكُنْتَ أَخْرَجْ فَأَشْهَدَ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَطْوَفَ الْأَسْوَاقَ، وَلَا يَكْلُمُنِي أَحَدٌ". وهذا يدل على انضباط المجتمع المسلم بأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

يقول: "وَآتَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَعْبَ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدِ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَكَ شَفْتِيَّهُ يَرْدُ السَّلَامَ أَمْ لَا؟، ثُمَّ أَصْلَى قَرِيبًا مِنْهُ، وَأَسَارَقَهُ النَّظَرَ -أَيْ: أَنْظَرَ إِلَيْهِ خَلْسَةً-، فَإِذَا أَقْبَلَتْ عَلَى صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ، وَإِذَا التَّفَتَ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا طَالَ ذَلِكَ عَلَيَّ مِنْ جُفْوِ الْمُسْلِمِينَ مَشَيَّتْ حَتَّى تَسْوَرَتْ جَدَارَ حَائِطِ أَبْيَ قَتَادَةَ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي".

أبو قتادة -رضي الله تعالى عنه- ابن عمه من بعيد، يعني: يجتمع معه في الجد الخامس بالنسبة لأبي قتادة، وبالنسبة لكعب في الجد السادس.

يقول: "وَأَحَبُّ النَّاسَ إِلَيَّ فَسَلَّمَتْ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَ عَلَيَّ السَّلَامُ، فَقَلَّتْ لَهُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشَدَكَ بِاللَّهِ -يَعْنِي: أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ- هَلْ تَعْلَمُنِي أَحَبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَسَكَتَ، فَعَدَتْ فَنَاشِدَتْهُ فَسَكَتَ، لَأَنَّهُ مِنْهِي عَنْ مَحَادِثَتِهِ، فَعَدَتْ فَنَاشِدَتْهُ، فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، يَقُولُ: فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَتَوَلَّتْ حَتَّى تَسْوَرَتْ الْجَدَارَ".
تصور هذا الحال، أقرب الناس إليه، وأحب الناس إليه لا يرد السلام، ويستحلفه هل تعلم أني أحب الله ورسوله ولا يرد عليه، فما بالك بالآخرين، ما بالك بمن يشمت أو يعاديه، أو بينه وبينه وحشة؟!، كل ذلك التزاماً بأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، والحديث له بقية، أسأل الله أن ينفعنا وإياكم بما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين.